الوطنُ الذي قامَ على التوحيد: حُبُّه دينٌ وولاؤه قُربة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فطر القلوب على محبته، وجعل لها من نور الوحي ما يهديها إلى صراطه المستقيم، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، الذي جمع الله به الكلمة، وأقام به الملة، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن الله سبحانه قد أودع في فطر عباده محبة الأوطان، والحنين إليها، والقيام بمصالحها، فذلك أمر مركوز في الجِبِلَّة، لا يكاد ينفك عنه أحد من بني آدم، وهو من تمام الحكمة التي بها تنتظم مصالح الخلق، وتستقيم بها أحوالهم. غير أن هذه المحبة إنما تُحمد وتُمدح إذا اقترنت بنور الشرع، واستضاءت بهدي الوحي، فصارت عبادةً يتقرب بها العبد إلى ربه، لا مجرد ميل طبعي أو هوى نفسي.

وإذا كان الوطن قائماً على توحيد الله، معظِّماً لسنة رسوله، ناصراً لدينه، حامياً لجنابه، قائماً على تحكيم شريعته، كما هو حال هذه البلاد المباركة التي شرَّفها الله بالحرمين الشريفين، وجعلها مأرز الإيمان، ومنبع التوحيد، ومهوى أفئدة المسلمين، فإن محبته حينئذٍ ليست مجرد فطرة، بل هي دين وقربة، وولاء مشروع، يُثاب عليه العبد إذا صدق فيه قصده، وصح فيه اتباعه.

فقد اجتمع في محبة هذا الوطن ثلاثة أصول عظيمة: فطرةٌ سليمة تدعو إلى حبه، ووحيٌ معصوم يأمر بحفظ جماعته والقيام بحقوقه، واجتماعٌ شرعي على ولاة أمره الذين بهم تنتظم المصالح، وتُحقن الدماء، وتُصان الأعراض، ويُقام الدين. وهذه الأصول الثلاثة إذا اجتمعت في أمة، ألبسها الله لباس الأمن، وأسبغ عليها نعمة الاستقرار، وأيّدها بالنصر والتمكين.

ومن تأمل نصوص السنة، علم أن السمع والطاعة لولاة الأمر في المعروف أصلٌ من أصول أهل السنة، به تُسد أبواب الفتن، وتُدرأ مفاسد الخروج، قال الله تبارك وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء : 59]، وعن مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، أخبرنا عبادة بن الوليد بن عبادة أن أباه أخبره عن عبادة بن الصامت قال : [بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في اليسر والعسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم]، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر : ((اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة))، وعن أبا أمامة رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع فقال : ((اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم))، - ذكر هذه الاحاديث الامام البغوي في تفسير الاية -
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني)) متفق عليه. وقال أيضاً: ((عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك)) رواه مسلم. فدل ذلك على أن الاجتماع رحمة، وأن الفرقة عذاب.

فإذا انضم إلى فساد الفطرة ببغض الوطن، فسادُ الدين بمنازعة ولاة الأمر والخروج عليهم، اجتمع على صاحبه شران عظيمان: انحراف في الجِبِلَّة، وانحراف في الشريعة، فيكون بذلك قد شابه أهل الأهواء والبدع، وسلك سبيل الخوارج الذين ذمهم النبي صلى الله عليه وسلم، ووصفهم بأنهم ((يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية))، وأنهم ((شر قتلى تحت أديم السماء)).

وهؤلاء القوم إنما بلغ بهم الضلال أن استحلوا دماء المسلمين، وكفّروا جماعة المؤمنين، وخالفوا سبيل الصحابة والتابعين، ففسدت فطرهم كما فسد فهمهم، فصاروا يجمعون بين قسوة القلب، وسوء الاعتقاد، وفساد العمل، فكانوا شر الخلق والخليقة، كما صح بذلك الخبر عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

وليس في الشرع ما يدل على مدح الخروج ولا الثناء على أهله، بل النصوص متظاهرة على ذمهم، والأمر بقتالهم إذا ظهروا، حمايةً لبيضة الإسلام، وصيانةً لجماعة المسلمين، كما قاتلهم الصحابة رضي الله عنهم بإجماع منهم، ولم يُعرف فيهم مخالف.

فالواجب على العبد أن يُصلح فطرته بنور التوحيد، ويُزكي دينه بلزوم السنة، ويعتصم بجماعة المسلمين، ويقوم بحق وطنه الذي نصر الدين، وأقام الشرع، وأظهر التوحيد، فإن ذلك من شكر نعمة الله، ومن أسباب دوامها.

ومن وفقه الله لهذا، فقد جمع بين نور الفطرة ونور الشريعة، فاستقام له الأمر ظاهراً وباطناً، ونال حظاً وافراً من الأمن والإيمان، وكان من أهل السعادة في الدارين. ومن أعرض عن ذلك، فليخف على نفسه أن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

نسأل الله أن يحفظ على المسلمين دينهم وأمنهم، وأن يجمع كلمتهم على الحق، وأن يرزقهم السمع والطاعة في المعروف، وأن يعيذهم من الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه سميع قريب.